كَيفَ نقرَأ؟ [٣]

استكمال القول في النَّوعِ الأوَّل مِن أنواعِ القِراءةِ:

القراءةُ الاسْتكشافيّة

(فقه عَنوان الكتاب ضرورة في حسن التلقّي)

أ.د. مَحمُود تَوفِيق مُحَمّد سَعد(*)

إذا كانَ من هدي القرآن تصريحًا أنَّه ليس للمرء أن يقفُو ما ليسَ له به علمٌ:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ (الإِسْرَاء: ٣٦)

فإنه يهدي لزومًا إلى ألّا يقفوا من ليسَ له به علمٌ، فالعرفان بِمن تأخذ عنه العلمَ فريضةٌ في شرعة طلب العلم وتلقيه؛ ولذا كان في بيان الوحي قرآنًا وسنةً بيانٌ وفيرٌ عن الله – سبحانه وبحمده – وعن القرآن الكريم، وعن سيّدنا رسول اللهِ ﷺ وكلُّ هذا أَضحى فريضةً في أصولِ طلبِ العلمِ وتلقيه وخدمتهِ، ومن ثمّ جعلَ العلماءُ الاعتناءَ بالسندِ في طلبِ العلمِ ونشره دينًا، فإذا ما اجتهدَ القارئُ في الوفاءِ بما عليهِ من العرفانِ بشأنِ من يحملُ عنهُ العلمَ، ومن يجري حوارًا صموتًا معه، ويبذلُ بعضًا من عمرهِ وجهدهِ في قراءة ما كتبَ ويفتحُ له قلبه، فحق له أو عليه من بعدِ ذلكَ أن يتبصَّر عنوانَ «الكتابِ»، أو المقالِ ونحوه، ولا سيما كتبُ الأعيانِ ومقالاتهم، ففقهُ عنوانِ الكتابِ مفتاحٌ لحسنِ البصرِ بموضوعهِ وَمجالهِ ومنهجهِ، فمن أسسِ جودةِ عنوانِ الكتبِ العلميَّة أَن يكونَ العنوانُ محققًا وظيفتهُ التي يضطلعُ بها.

مفهوم كلمة عنوان: كلمةُ «عنوان» أَو «علوان» هاديةٌ إلى أنَّ هذه الكلمةَ أو الجملةَ إنما جُعِلَتْ مُخبِرَةً عما تضمنه الكتابُ. إن أنبأت هذه الكلمة أو الجملة: (عنوان الكتاب) في خفيةٍ فهي «عنوان» تهدي في لطفٍ إلى موضوعِ الكتابِ ومجالِه ومنهجِه. وإن كان إعرابها عنه جليًّا، فهي «علوان»، وإلَّا لم تكن أيهما، فما هي بعلوانٍ ولا عنوانٍ (١).

وعنوانُ الكتابِ الدال على موضوعهِ ومقصودهِ هو أولُ ما يلقاك منه، فهو كـ «الوجه» بالنسبةِ

(*) عضو هيئة كبار العلماء.

(١) عُنوانُ الكتاب بالضم، هي اللغة الفصيحة، وقد يكسر، فيقال: عِنْوانٌ، وإذا كان باللام فبالضم لا غير. وعلوان كلّ شَيْءٍ سمتُه، وَكُلَّ مَا اسْتَدْلَلْتَ بظاهره عَلَى باطنه فَهُوَ عُنوانٌ لَهُ، ومن ثَم لا يسمى عنوانًا إلاَّ إذا أبرز ما فيه وأظهره إجمالًا.

للإنســانِ، والعنوان الحسنُ الدلالةِ على موضوع الكتابِ ومغزاهُ وتامها وحكيمها هو من قبيل «براعةِ الاستهلالِ» و«التصدير» الدال على بقيةِ الكلامِ، وقد كانتِ العرب تستمجد أن يكون في مفتتحِ الكلام مــا يدلُّ عليهِ؛ ليكون الســامعُ أو القــارئُ على بينةٍ مِن حركةِ المعنَى في بيــانِ المتكلمِ، فيجري معهُ، فيتحقق للكلامِ حقه من حسنِ التلقي، فأنتَ حينَ تُحسِنُ وَضع عنوانٍ لكتابك، فإنك من قبلِ أن تكونَ مُحسِــنًا به للقارئ، فإنك المحســنُ إلى كتابك، وكتابك وليدك من عقلِك، وهو بمنزلةِ وليدك من صُلبِك في الفضلِ.

ومن أســسِ جودةِ العنوانِ «الإيجازُ» و«الدقةُ»، وألا يشتمل على تعبيراتٍ مجازية أو رمزيةٍ موهمةٍ غير المراد، فإن هذا قد يخدشُ قدره فِي حســنِ الدلالةِ وتمامها وإحكامها، وذلك قوامُ رســالته، وإنما الأمورُ بوظائفها وقدرتها على تمامِ أدائها.

صورٌ من عنايةِ الأعيان بعناوين أسفارهم: جلي لا يخفَى أن كتابك وليدُ عقلِك ولسانك، وأن من حقِّ الوليد على والده أن يُحسِــن له اسمه؛ ولذا كان ســيدنا رسولُ الله – صلّى اللهُ عليهِ وعلى آله وصحبِه وســلم – يغير أسماءَ بعضِ الصحابة والصحابيات، ومثل هذا منه – صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وصحبِه وســلم – لــن يكون أمرًا شــكليًّا – حاشــاه – ومن ثم كان للأعيانِ من الســلف عنايــة بتحريرِ عناوينِ أسفارهم، فأبو الفتح عثمانُ بن جني (ت: ٣٩٢هــ) يسمي كتابه العمدةَ في بابه «الخصائِص».

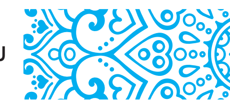
يهديك بعنوانِه إلى أنه كتابٌ فيما اختصت به العربيّة من بين اللغات التي كانت، وكان «ابن جني» يجيــد «الفارســية»، و«الرومية» وهما اللغتانِ الأهم بعد العربية حينــذاك. وهذا الكتاب في خصائصِ اللســانِ العربيّ، كتابٌ لا يعلمك دقائق العلم في موضوعه فحســب، بل يعلمك أيضًا حسنَ النظرِ فيما أنتَ تقرأُ. يُعلمك منهجيَّةَ التأمل والتفكيرِ والتأويل والتعليلِ والمقايسةِ، واستنباطِ الدقائقِ واللطائفِ. هو كتابٌ – فيما أذهبُ إليهِ – ليس في خصائصِ اللســانِ العربي فحســبُ، بل في خصائصِ الإنســانِ العربي الناطقِ بذلك اللسانِ.

أنتَ بملككَ أن تبصرَ شــيئًا من خصائص الإنســانِ العربيِ في علاقاتِه بالآخرين من خلالِ البصرِ بخصائصِ علاقاتِ مكوناتِ الكلمةِ والجملةِ وما فوقها. أنتَ تقرأُ خصائصَ العربية في علاقاتِ الأصواتِ في تجاوراتها، وهي تخلقُ كلمةً، وهو ما يعرفُ ببابِ «الإعلالِ والإبدالِ» فِي «علمِ الصرف».

أرأيتَ الذي لا يأنسُ سمعه بتجاورِ بعضِ الأصواتِ، فيُحدِثُ فِيها ما يحقق بينها المؤانسة، يمكنُ أن يأنسَ بتنافرٍ بين مكونات مجتمعه؟ فإن كان، فما هو بالعربي بتةً، وإن كان قرشــي النسبِ. العروبةُ منهاجُ حياةٍ، وليست نسبًا.

بــاب «الإعلال والإبدالِ» بابٌ فِي العلاقاتِ بين الأصواتِ وتفاعلهــا في تحقيقِ الوجودِ الكلمي الذي منه يمكن الارتقاءُ إلى تحقيقِ المؤانسةِ في الوجودِ «الكلامي» والوجود «النصي» على مستوى الصوتِ والمعنى والمغزى.

وكل ذلــكَ هو مســتمدٌّ من صورةِ العلاقاتِ التي كانت بين أبنــاءِ القبيلةِ العربية يوم أن كان العربُ عربًا لم تُدنس عقولهم وألسنتهم وأخلاقهم بعجمةٍ.

حسنُ تبصرك فِي كتاب: «الخصائص» يهديك لِمَ أنزل القرآن بالعربية، ولِمَ اختار الله تعالى العربَ ليحملوا الرسالةَ، ولِمَ اختارَ منهم سيدنا محمدًا ﷺ لينزلَ عليه القرآنَ، كل ذلك تبصره في اللسانِ العربيِّ الذي تحلى بخصائصَ مستمدةٍ من خصائصِ الناطقين بهِ.

وأنت تقرأُ في كتابِ: «الخصائص» إنما تقرأ خصائصَ الإنسانِ العربي من خلال خصائص اللسانِ العربي فحسنٌ أن تبصرها في اللسان وصاحبهِ.

وكذلك في تبصرِ عنوانِ كتابِ: «أسرارِ البلاغةِ» ورسالة: «الشافية» وكتابِ: «دلائلِ الإعجازِ» لعبدِ القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١ هـ) ما يهديك إلى موضوعِ كلٍّ، وطبيعةِ المنهاجِ المتخذِ فيه، وهذا مفتاحٌ من مفاتح خزائن الفهم.

عنوان الأول: «أسرارُ البلاغَة» هادٍ إلى أن مناط النظرِ فيه إنما هو حقيقةُ ما يكونُ به الكلامُ بليغًا، وما يجعلُ هذه البلاغةَ من اللطفِ على نحوٍ لا يتراءى لكلِّ ناظرٍ، فالعرفانُ القويمُ بالأشياءِ محسوسها ومعقولها عمودُ الأمرِ فيه الوقوفُ على ما به يكونُ به فريدًا متميزًا عما يكونُ منه بسببٍ، فكما أنه ليس كل قولٍ بشريٍّ بيانًا، فبعضُ القولِ البشري لا تتحققُ فيهِ الإبانةُ عن أصلِ مكنونِ الصدر، وهو ما فقدَ حليةَ «حسنِ الدلالةِ» أو ضعفت فيه، فلا يسبقُ أصلُ معناه إلى قلبك لفظه إلى سمعك، فأنت بحاجةٍ إلى أن تتلبثَ مليًّا أو تسأل القائل عما يحملُ من أصلِ المعنى، وهو أدخلُ فيما يسمّى عند الأصوليين بـ «المجمل» - كذلك ليس كلُّ بيانٍ بشري كلامًا، فبعضُ البيانِ حسنُ الدلالة لا يكونُ فعيلًا في متلقيه لأمرٍ يرجعُ إلى الكلامِ نفسِه لا لمتلقيه، أمَّا الكلامُ، فما كان حسنَ الدلالة تامها فاعلًا في من يتلقاه بقلبٍ سليمٍ. ومن ثم سُمّيَ «كلامًا» من «الْكَلْمِ»: الجُرح.

هذا الكلامُ الفعيلُ فيه أسرارٌ بها يكون بليغًا، وكتاب عبد القاهرِ: «أسرار البلاغة» قائمٌ لبيانِ شيءٍ مِن تلك الأسرارِ في كلّ كلامٍ بليغٍ، ولا سيما الكلمة الشاعرة وهو يرسم فِي أوله خارطة الطريق إلى كشفِ شيءٍ مِن تلك الأسرارِ بقولِه: «واعلم أن غرضي فِي هذا الكلامِ الذي ابتدأتهُ، والأساس الذي وضعتهُ: أن أتوصلَ إلى بيانِ أمر المعاني كيفَ تختلفُ وتتفقُ. ومن أين تجتمعُ وتفترقُ. وأفصل أجناسها وأنواعها، وأتتبع خاصها ومشاعها، وأبين أحوالها في كرم منصبها من العقل، وتمكنها في نصابه، وقرب رحمها منه، أو بُعدها حين تنسب عنه ... إلخ»[٢].

هذه الفقرةُ تهديك إلى مكمن أسرار بلاغة البيانِ، وإلى الطريقِ إلى تحصِيل تلك الأسرار، فمن مارسَ قراءةَ بيانٍ بليغٍ دونَ أن يكونَ مناطُ نظره وتبصره وتدبره الأبوابَ التي نص عليها في هذه الفقرةِ، فإنه لن يتأتّى له أن يبصرَ شيئًا من أسرارِ بلاغةِ أي بيانٍ، ولهذا كانَ كتابُ (أسرار البلاغة) عامًّا فِي بلاغةِ أيِّ بيانٍ وغير مقيد بنوعٍ معينٍ من البيانِ، فـ (أَلْ) في قوله (البلاغةِ) تفيدُ العمومَ. وإن كانت العنايةُ ببلاغةِ الكلمة الشاعرة أظهر فهوَ كالمقدمةِ لكتابِ (دلائل الإعجاز) ومن هنا كان عنوانُ الكتابِ مُفهمًا موضوعه وغايته.

(٢) أسرار البلاغة. تأليف عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة. ص: ٢٦.

وإذا نظرت في قولِ عبد القاهر في شــأن (التشــبيه والاســتعارة) في هذا الكتاب علمتَ أن الكتاب غيــر معقودٍ للقولِ فيهما بالقصدِ الرئيسِ، فما هــو كتاب فِي (علم البيان) باصطلاحِ المتأخرين، إنما القولُ فيهما توطئةٌ للقولِ في (المعاني التخييلية) الذي هو عمودُ القولِ في الكتابِ. المعاني التخييلية فِي البيانِ البشــري هِي التــي تجعلُ مِن البيان كلامًا بليغًا فَعيلًا. وهذه المعاني التخييلية إذا أحســنَ المرءُ إدراكَ أسرارها وخصائصها ولطائفها، كان بملكِه أن يكون ذا مهارةٍ يبصرُ بها ما به يكونُ بيانُ الوحي مُعجِزًا، ذلك أنها وإن تكن ســرّ أسرار الإبداعِ في كلمةِ الإنسان الشاعرة، فليس لها بتةً حضورٌ في الكلمةِ الحقّ: بيان الوحي. بين البيانين: فيما يقومُ عليه كل مفارقةٌ:

البيان الإبداعي ولا ســيما الشــعرُ يقومُ على التخييل المتولد مِنه ما يسمى بالمعاني التخيلية، بينا بيانُ الوحي يقومُ على التحقيق (الحق المطلق)؛ فجميع معانيه متسمة بالحق والصدق.

ومن ثمَّ ترى عبدَ القاهرِ يحكم على ما جاء في الشــعر من معانِي عقلية بأنه شــعرٌ مغســولٌ. تراه يقولُ فِي قولِ الشاعر: كلُّ امرئ يولي الجميلَ محببٌ ...

«صريحُ معنًى ليس لِلشعرِ فِي جوهره وذاته نصيبٌ»[٣].

فِي كل: (البيان البشري البديع) و(بيانِ الوحي المعجز) ما به يتحققُ له خصوصيتهُ. فـ (التقديمُ والتأخيرُ)، و(الفصلُ والوصلُ)، و(التعريفُ والتنكير) ... إلخ كلُّ ذلك قائمٌ في كلِّ كلامٍ بليغٍ، فما الذي يجعلُ شعرًا فيه تلك الأساليبُ مدهشًا ويجعلُ كلامًا آخر فيه الأساليبُ نفسها غيرَ ملفتٍ؟

وهذه الأســاليبُ نفسها قائمةٌ في بيانِ الوحيِ قرآنًا وســنة فما الذي جعلَ هذا البيانَ معجزًا، وذاك مدهشًا؟

جلي أن ذلك ليس الجاعل الشعر مدهشًا، والوحي معجزًا، ليس نوع الأساليب.

إنه هو أمر آخر:

في البيانِ البشري الإبداعي أمرٌ يمثلُ فِي (المعاني التخييليّة)

وهذا ما عقد له عبد القاهر كتابه: (أَسرارُ البلاغةِ)[٤]

أما في بيانِ الوحي قرآنًا، فأمرٌ آخر، وَذلِك ما عقدَ له كتابهُ الآخر (دلائلُ الإعجاز).

وبهذا تفهمُ لم ســمي الأولُ (أَســرارَ البلاغةِ) فتحسنَ استقبالَ الكتابِ علَى نحوٍ غيرِ الذِي يكونُ لكَ إذا لم تكن بصيرًا بحكمةِ تسميتهِ.

وفي المقال القادم يأتيك - إن شَــاءَ اللهُ تعَالى - بيان دلالة اســم رســالته (الشافية) ودلالة كتابِه (دلائل الإعجاز) على مضمونِ كلّ ومنهاج القولِ فيه والله هو المستعان على طاعتِه.

---

(٣) المرجع السابق. ص: ٢٦٥.

(٤) كتابُ أســرار البلاغة جاء من بعد أن تضــلَّع عبد القاهر بقضايا ومســائل علم النحو ومذاهب النحاةِ ومنهاج التفكير فيه، وصار فيه مبرزًا، فكان يعرف بعبد القاهر النحوي، فشــرح كتاب الإيضــاح العضديّ لأستاذ أستاذه أبي علي الفارسي (ت: ٣٧٧ هـ) الذي ألفه أبو عليّ الفارســيّ لعضد الدولة البويهي، فشرحه عبد القاهر في ثلاثين مجلدًا فسماه (المغني)، ومن بعد هذا عمد إلى القول في بيان أسرار بلاغة البيان الذي تبحر في العلم بأصــول تراكيبه الدالة على أصل المعنى، فطالب علم البلاغة إذا لم يكن منطلقه العرفان المحقق بعلم النحو ومناهج التفكير فيه، فهو في علم البلاغة خداج. وهذه بعض أسباب إخفاقنا في فقه علم البلاغة العربي على النحو الذي هو جديرٌ بِه.

